

فصل

في غزوة^(١) حُنَيْنٍ وتسمى غزوة^(٢) أُوطَاسٍ

وهما موضعان بين مكة، والطائف، فسميت الغزوة باسم مكانها، وتسمى غزوة هَوَازِن؛ لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ، وما فتح الله عليه من مكة، جَعَّهَا مالك ابن عوف النَّصْرِيُّ^(٣)، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت إليه مُضَرُّ، وَجَشْمُ كلها وسعد ابن بكر، وناس من بنى هلال، وهم قليل، ولم يشهدوا من قيس عِيلَانِ إلا هَوْلَاء، ولم يحضرها من هوازن كعب، ولا كِلَاب، وفي جشم دُرَيْدُ بن الصَّمَّة شيخ كبير، وليس فيه إلا رأيهُ ومعرفته بالحرب، وكان شجاعاً مُجَرَّباً، وفي ثقيف سيدان لهم، وفي الأحلاف قَارِبُ بن الأسود، وفي بنى مالك سُبَيْعُ بن الحارث، وأخوه أحمَر بن الحارث وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري .

فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم، وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة، فلما نزل قال : بأى واد أنتم؟ قالوا : بأوطاس، قال : نَعَمْ بِجَبَالِ الخيل، لَا حَزَنٌ ضَرُسٌ^(٤)، وَلَا سَهْلٌ دَهْسٌ^(٥)، مالى أسمع رُغَاء البعير، ونُهَاق الحمير، وبكاء الصغير ويعار الشاء^(٦)؟

(١) في خ : «غزاة»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٣) نسبة إلى جده الأعلى نَصْر - بالصاد المهملة - بن معاوية .

(٤) الْحَزَن : ما غُلِظ من الأرض وارتفع . وَالضَّرُس : هى أرض به حجارة محددة كالسن .

(٥) الدَّهْس : السهل اللين من الأرض، ولم يبلغ أن يكون رملاً .

(٦) رُغَاء، ونُهَاق، ويعار : أساء أصوات هذه الحيوانات .

قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم، وأموالهم، وأبناءهم .

قال : أين مالك؟ قيل : هذا مالك، ودُعي له، قال : يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع، رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير^(١)، ويعار الشاء؟! قال : سقت مع الناس أبناءهم، ونساءهم، وأموالهم .

قال : ولم؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال : راعى صَانٍ^(٢)، والله، وهل يرد المنهزم شيء، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه، ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحَتْ في أهلك، ومالك .

ثم قال : ما فعلت كعب، وكلاب؟ قالوا^(٣) : لم يشهدا منهم أحد، قال : غاب الخُذُّ^(٤)، والخذُّ لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب، ولا كلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدا منكم؟ قالوا : عمرو بن عامر، وعوف بن عامر؟ قال : ذاك الخُذَّعَانِ^(٥) من عامر، لا ينفعان^(٦)، ولا يضران .

يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم البيضة، بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى مُتَمَنِّع بلادهم، وعُلياً قومهم، ثم الق الصُّبَاة^(٧) على متون الخيل، فإن كانت لك لِحَقَّ بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك أُلُفَّاك ذلك، وقد أحرزت أهلك، ومالك .

(١) في هـ : «الصبي»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٢) يقصد بهذا صَغَفَ رأيه، وشدة جهله بعواقب الأمور .

(٣) في هـ : «قيل»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٤) الخُذُّ : النشاط والسرعة في الأمور والمُضَاء فيها .

(٥) أى : الضعيفان في الحرب، كالجُدْع، إذ لصغر سنّه فهو ضعيف .

(٦) في هـ : «ينفعك»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٧) الصُّبَاة : جمع صابى غير مهموز، وهى لغة في صابئ، ويقصدون بهم المسلمين عندهم، حيث كانوا يعتبرون من أسلم وخرج من دين الجاهلية صابئاً .

قال : والله لا أفعل، إنك قد كبرت، وكبر عقلك، والله لتطيعني^(١) يا معشر هوازن، أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر، ورأى، فقالوا : أطعناك، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني .

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَّعُ أَحَبُّ فِيهَا وَأَضَعُ^(٢)

أَقُودَ وَطَفَاءَ الزَّرْمَعِ كَأَنَّهُ شَاةَ صَدَّعُ^(٣)

ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد . وبعث عيوننا من رجاله، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، قال : ويلكم ما شأنكم؟ قالوا : رأينا رجالا بيضا على خيل^(٤) بُلَّتْ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

ولما سمع بهم نبي الله ﷺ، بعث إليهم عبد الله بن أبي حذرَد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبي حذرَد، فدخل فيهم حتى سمع، وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك، وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر .

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعا وسلاحا، فأرسل إليه، وهو يومئذ مشرك، فقال : «يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غدا» فقال صفوان : أغصبا يا محمد؟ قال : «بل عارية مضمونة

(١) في هـ : «لتطيعن» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

(٢) جَدَّعُ : أى : شاب . وأَحَبُّ وَأَضَعُ : نوعان من السير .

(٣) الْوُطَفَاءُ : الفرس طويلة الشَّعْر، وَالزَّرْمَعُ : أى : ذات شَعْر على مربوط قيدها، وهو وصف محمود في الخيل . ويقصد بالشاة هنا : الْوَعْلُ - تَيْس الجبل - وَصَدَّعُ : أى : ليس بالغليظ ولا الدقيق . وإنما يوصف بذلك لاجتماع القوة فيه والخفة .

(٤) في خ : «خيول» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ ، والخيل الْبُلُق : هى التى بها سواد وبياض .

حتى تؤديها إليك»^(١)، فقال : ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها^(٢) من السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأل أن يكفيهم حملها، ففعل .

ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة، وكانوا اثني عشر ألفاً، واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميراً، ثم مضى يريد لقاء هوازن^(٣) .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال : لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف^(٤) حطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً، قال : وفي عماية الصبح، وكان القوم سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه، وأحنائه^(٥)، ومضايقه، قد أجمعوا، وتهيؤوا، وأعدوا، فوالله ما راعنا - ونحن منحنون - إلا الكتائب، قد شددوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوى أحد على أحد .

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال : «إلى أين أيها الناس؟ هلُمَّ إلَيَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، وبقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين [والأنصار]^(٦) وأهل بيته، وفيمن ثبت معه من المهاجرين : أبو بكر، وعمر، ومن أهل بيته : علي والعباس، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه والفضل بن العباس، وربيع بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن ابن أم أيمن، وقتل يومئذ .

قال : ورجل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل

(١) الحاكم في المستدرک (٣/ ٤٨، ٤٩)، وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى في العارية (٦/ ٨٩) .

(٢) في ق : «فيها»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٨١ - ٨٤) .

(٤) في خ : «الجوف» وما أثبتناه من ق، ك، هـ، وأجوف : أى متسع . والحطوط : المنحدر .

(٥) في هـ : «أحنائه»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٦) ليست في ق، ك، هـ، وما أثبتناه من خ .

أمام هوازن، وهوازن خلفه إذا أدرك طعن برمح، وإذا فاتته الناس رفع رمحاً لمن وراءه، فاتبعوه، فبينما هو كذلك إذ هوى له على بن أبي طالب، ورجل من الأنصار يريدانه، قال: ويأتي^(١) على من خلفه، فضرب عرقوبى^(٢) الجمل، فوقع على عجزه ووثب الأنصارى على الرجل، فضربه ضربة أطن^(٣) قدمه بنصف ساقه، فأنجَعَف^(٤) عن رحله، قال: فاجتلد الناس [قال]^(٥) فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ﷺ^(٦).

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جُفَاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضَّغْن^(٧)، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر، وإن الأرقام لمعه في كنانته.

وصرخ جبلة بن الحنبل - وقال ابن هشام: صوابه كَلْدَة - : ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان أخوه لأمه، وكان بعد مشركا: اسكت، ففَضَّ الله فاك، فوالله لأن يَرُبَّنِي رجل من قريش، أحبُّ إلى من أن يربننى رجل من هوازن^(٨).

وذكر ابن سعد عن شيبة بن عثمان الحَجَبِي قال: لما كان عام الفتح ودخل رسول الله ﷺ مكة عَنَوَة، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غِرَّة، فأثار منه، فأكون أنا الذى قمت بثار قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا، ما تبعته أبدا، وكنت

(١) في هـ: «أتى»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٢) في ق: «عرقوبا»، وما أثبتناه من خ، ك، ق.

(٣) أطن: أى قَطَعَ، استعارة من الطَّيْن: وهو صوت القطع.

(٤) انجَعَف: أى صُرِع وسقط.

(٥) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٨٦، ٨٧).

(٧) في هـ: «الظعن»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٨) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٨٧).

مُرْصِدًا لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسى إلا قوة .

فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، وأصلتُ السيف، فدنوت أريد ما أريد منه ورفعت سيفى حتى كدت أشعره إياه، فرفع لى شَوَاطٍ من نار كالبرق كاد يمحشنى، فوضعت يدى على بصرى خوفاً عليه، فالتفت إلى رسول الله ﷺ ، فنادانى : «يا شَيْبُ، اذْنُ مِنِّى»، فدنوت، فمسح صدرى، ثم قال : «اللهم أعذه من الشيطان» قال : فوالله لهُوَ كان ساعِثُذ أحب إلى من سمعى، وبصرى، ونفسى، وأذهب الله ما كان فى نفسى، ثم قال : «اذْنُ فَقَاتِلْ» .

فتقدمت أمامه أضرب بسيفى، الله يعلم أنى أحب أن أقيه بنفسى كُلَّ شىء، ولو لقيت تلك الساعة أبى لو كان حيا لأوقعت به السيف، فجعلت ألزمه، فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون، فَكُرُوا كرة رجل واحد، وَقُرِبْتُ بغلة رسول الله ﷺ، فاستوى عليها، وخرج فى أثرهم حتى تفرقوا فى كل وجه^(١)، ورجع إلى معسكره، فدخل خباءه، فدخلت عليه، ما دخل عليه غيرى حبا لرؤية وجهه، وسرورابه .

فقال : «يا شَيْبُ، الذى أراد الله بك خير^(٢) مما أردت لنفسك»، ثم حدثنى بكل ما أضمرت فى نفسى ما لم أكن أذكره لأحد قط، قال : فقلت : فإننى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله ﷺ، ثم قلت : استغفرلى، فقال : «غفر الله لك»^(٣) .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى الزهرى، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس ابن عبد المطلب قال : إنى لمع رسول الله ﷺ أَخَذَ بِحَكْمَةٍ^(٤) بغلته البيضاء قد شَجَرْتُهَا^(٥) بها، وكنت امرءا جسيما شديد الصوت، قال : ورسول الله ﷺ يقول حين

(١) فى خ : «فرجه» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

(٢) فى خ ، هـ : «خيرا» ، وما أثبتناه من ق ، ك .

(٣) الإصابة لابن حجر (٢ / ٢١٦)، وعزاه لابن سعد .

(٤) الحَكْمَة : حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وَحَنَكِهِ، تمنعه من مخالفة راكمه .

(٥) شَجَرْتُهَا : أى : ضربتها بلجامها أَكْفَهَا حتى فتحت فاهًا .

رأى ما رأى من الناس : «إلى أين أيها الناس؟» قال : فلم أر الناس يلوون على شيء فقال : «يا عباس، اصرخ : يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السَّمرة»^(١)، فأجابوا : لبيك لبيك، قال : فيذهب الرجل ليشئ بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه، فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه، [وقوسه]^(٢)، وتُرْسَه، ويقتحم عن بعيره، ويحلى سبيله، ويؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ

حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس، فاقتتلوا، فكانت الدعوة أول ما كانت : يا للأنصار، ثم خلصت آخرًا^(٣) : يا للخزرج، وكانوا صُبرًا عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مُجْتَلِدِ القوم وهم يجتلدون، فقال : «الآن حمى الوطيس» وزاد غيره :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(٤)

وفي صحيح مسلم : ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بها في وجوه الكفار، ثم قال : «انْمُرُوا وَرَبَّ مُحَمَّدٍ»، فما هو إلا أن رماهم، فما زلت أرى حَدَّهم كَلِيلًا، وأمرهم مُدْبِرًا^(٥).

وفي لفظ له : إنه نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل بها وجوههم، فقال : «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين^(٦).

(١) السَّمرة : هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحُدَيْبية .

(٢) ليست في ق ، ك ، هـ وما أثبتناه من خ .

(٣) في هـ : «أخرى» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٨٨، ٨٩)، البخاري في المغازي (٤٣١٥)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٦ / ٢٧٨) .

(٥) مسلم في الجهاد والسير (١٧٧٥ / ٧٦) .

(٦) مسلم في الجهاد والسير (١٧٧٧ / ٨١) .

وذكر ابن إسحاق عن جُبَيْر بن مطعم، قال : لقد رأيت - قبل هزيمة القوم، والناس يقتتلون [يوم حنين] ^(١) - مثل البَجَادِ ^(٢) الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فلم أشك أنها الملائكة .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المشركون أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة، وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبَلَ أوطاس أبا عامر الأشعري، فأدرك من الناس بعض من انهزم، فناوشوه القتال، فَرُمِيَ بسهم فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري، وهو ابن عمه فقاتل، ففتح الله عليه، وهزمهم الله، وقتل قاتل أبي عامر، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اغفر لأبي عامر، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك» واستغفر لأبي موسى ^(٣) .

ومضى مالك بن عوف حتى تحصن بحصن ثقيف، وأمر رسول الله ﷺ بالسبي والغنائم أن تجمع، فجمع ذلك كله وصيره إلى الجعرانة، وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، فاستأني بهم رسول الله ﷺ أَنْ يَقْدُمُوا عليه مسلمين بِضْعَ عشرة ليلة .

ثم بدأ بالأموال فقسّمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، فأعطى أبا سفيان ابن حرب أربعين أوقية، ومائة من الإبل، فقال : ابني يزيد؟ فقال : «أعطوه أربعين أوقية، ومائة من الإبل»، فقال : ابني معاوية؟ قال : «أعطوه أربعين أوقية، ومائة من الإبل»، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه،

(١) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

(٢) البَجَاد : الكِسَاء .

(٣) لسيرة النبوة لابن هشام (٤ / ٩٢، ٩٣)، وأخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٨٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٨ / ١٦٥) .

وأعطى النَّصْر بن الحارث بن كَلْدَةَ مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين - وذكر أصحاب المائة وأصحاب الخمسين - وأعطى العباس بن مرداس أربعين، فقال في ذلك شعرا، فأكمل له المائة .

ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم، والناس، ثم فَضَّها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل، وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً، وعشرين ومائة شاة .

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يك^(١) في الأنصار منها شيء، وَجَدَ^(٢) هذا الحى من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم : لقيى والله رسول الله ﷺ قومه .

فدخل عليه سعد بن عباد فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفىء الذى أصبت، فقسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحى من الأنصار منها شيء، قال : «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» فقال : يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال : «فاجمع لى قومك في هذه الحظيرة»، قال : فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون، فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال : «يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتني عنكم، وَجِدَّةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضُلَّالًا

(١) في هـ : «يكن» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك .

(٢) في هـ : «وجدت» ، وما أثبتناه من خ ، ق ، ك ، ووَجَدَ : أى غَضِبَ .

فهداكم الله بى، وعالة فأغناكم الله بى، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا : الله ورسوله آمنٌ، وأفضل .

ثم قال : «ألا تحيبونى يا معشر الأنصار؟» قالوا : بإذا نجيبك يا رسول الله ولرسوله المن والفضل، قال : «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتُم، ولصدقتُم : أتيتنا مُكذِّباً، فصَدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك^(١)، أوجدتُم علىَّ يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعاة^(٢) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة، والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكُم، فوالذى نفس محمد بيده، لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، ووادياً، وسلكت الأنصار شعباً، ووادياً، لسلكت شعب الأنصار، وواديهما، الأنصار شِعَار، والناس دِثَار^(٣)، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار» .

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم^(٤)، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً، وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا^(٥) .

وقدمت الشَّيْماء بنت الحارث بن عبد العزَّى، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فقالت : يا رسول الله، إنى أحتك من الرضاعة، قال : «وما علامة ذلك؟» قالت : عَصَبة عضضتنيها فى ظهري، وأنا مُتَوَرِّكْتُكَ، قال : فعرف رسول الله ﷺ

(١) فى خ : «فواسيناك» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

(٢) اللعاة : البقية اليسيرة . يعنى : أن الدنيا كالنبات الأخضر قليل البقاء .

(٣) الشَّعار : الثوب الذى يلى الجسد؛ لأنه يلى شَعْرهُ . والدِّثَار : الثوب الذى فوق الشَّعار . يعنى : أنتم الخاصة والبطانة والناس العامة .

(٤) أخضلوا لحاهم : أى : بَلَّوْها بالدموع .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ١٣٧، ١٣٨)، وفى الباب عند البخارى فى المغازى (٤٣٣٠)، ومسلم فى الزكاة (١٠٦١ / ١٣٩)، وأحمد (٧٦ / ٣) .

العلامة، فبسط لها رداءه، وأجلسها عليه وخيرها^(١)، وقال: «إن أحببت [الإقامة]^(٢) فعندى مُحِبَّة مُكْرَمَة، وإن أحببت أن أمتَّعَكَ، فترجعي إلى قومك؟» قالت: بل تمتعني، وتردني إلى قومي، ففعل، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاما يقال له: مكحول، وجارية، فزوجت أحدهما^(٣) من الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية، وقال أبو عمر: فأسلمت، فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد، وجارية، ونعما، وشاء وسماها حذافة قال: والشيء لقب^(٤).

فصل

وقدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ، وهم أربعة عشر رجلا، ورأسهم زهير بن صُرْد، وفيهم أبو بُرْقَان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يمن عليهم بالسبي، والأموال، فقال: «إن معي مَنْ ترون، وإن أحب الحديث إلى أصدقُه، فأبناؤكم، ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا، فقال: إذا صليت الغداة^(٥) فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يردوا علينا سَبِينَا، فلما صلى^(٦) الغداة قاموا، فقالوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب، فهو لكم، وسأسأل لكم الناس»، فقال المهاجرون، والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عُيَيْنَة بن حِصْن: أما أنا وبنو

(١) في هـ: «وخير»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٢) من هـ: «بياض» وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٣) في خ، هـ: «إحداهما» وما أثبتناه من ق، ك.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ١٠١). وانظر: الإصابة للحافظ ابن حجر (٤ / ٣٤٤) ترجمة (٦٣٣).

(٥) في خ: «بالغداة»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٦) في خ: «صلينا»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت^(١) بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال العباس بن مرداس: وَهَيْثُمُونِي، فقال رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين، وقد كنت استأنيت بسبيهم، وقد خيرتهم، فلم يعدلوا بالأبناء، والنساء شيئا، فمن كان عنده منهن شيء، فطابت نفسه بأن يرده فسيل^(٢) ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه، فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا»، فقال الناس: قد طينا لرسول الله ﷺ، فقال: «إنا لا نعرف من رضى منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فردوا عليهم نساءهم، وأبناءهم^{(٣)(٤)}.

ولم يتخلف منهم أحد غير عينة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزا صارت في يديه^(٥) منهم ثم ردها بعد ذلك، وكسا رسول الله ﷺ السبي قُبْطِيَّةً، قُبْطِيَّةً.

(١) في هـ: «فقال»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٢) في هـ: «في سبيل»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٣) في هـ: «نساؤهم وأبناؤهم»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٢٨، ١٢٩). وبنحوه: البخاري في الوكالة (٢٣٠٧، ٢٣٠٨)،

وأبو داود في الجهاد (٢٦٩٣)، وأحمد (٤/ ٣٢٦).

(٥) في خ: «يده»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

فصل

في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة

من المسائل الفقهية، والنكت الحكيمة

كان الله عز وجل قد وعد رسوله، وهو صادق الوعد، أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دينه أفواجا، ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا، ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين؛ ليظهر أمر الله، وتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانا لأهل الفتح، وليُظهر الله - سبحانه - رسوله، وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون ^(١) مثلها، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين، وتبدو للمتوسمين .

واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولا مرارة الهزيمة والكسرة، مع كثرة عَدَدِهِمْ، وَعُدَدِهِمْ، وقوة شوكتهم ليطامن رؤوسا رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده، وحرمه كما دخله رسول الله ﷺ واضعا رأسه منحنيا على فرسه، حتى إن ذقنه تكاد أن تمس سرجه تواضعا لربه، وخضوعا لعظمته، واستكانة لعزته أن أحل له حرمه، وبلده، ولم يحله لأحد قبله، ولا لأحد بعده، وليبين الله سبحانه لمن قال : لن نغلب اليوم عن قلة، أن النصر إنما هو من عنده ^(٢) وأنه من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله، ودينه لا

(١) في خ : «المسلمين» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

(٢) في خ : «عند الله» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

كثرتكم التي أعجبتكم، فإنها لم تغن عنكم شيئا، فوليتم مدبرين .

فلما انكسرت قلوبهم أرسلت إليها خلَعَ الجبر مع بَرِيد [النصر]^(١)، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا لم تروها، وقد اقتضت حكمته أن خَلَعَ النصر، وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْعَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢) وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ [القصاص] .

ومنها : إن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة، فلم يغنموا منها ذهابا، ولا فضة، ولا متاعا ولا سبيًا ولا أرضا، كما روى أبو داود، عن وهب بن منبه قال : سألت جابرا : هل غنموا يوم الفتح شيئا؟ قال : لا، وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل، والركاب، وهم عشرة آلاف، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم، ونعمهم، وشأنهم، وسبيهم معهم نَزْلا وضيافة، وكرامة لحزبه، وجنده، وتم تقديره سبحانه بأن أطمعهم في الظفر، وألاح لهم مبادئ النصر؛ ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

فلما أنزل الله نصره على رسوله، وأوليائه، وبردت^(٣) الغنائم لأهلها، وجرت فيها سهام الله ورسوله، قيل : لا حاجة لنا في دمائكم، ولا في نسائكم، وذرائكم، فأوحى [الله]^(٣) سبحانه إلى قلوبهم التوبة، والإنابة، فجاءوا مسلمين، فقيل : إن من شكران إسلامكم، وإتيانكم أن نرد عليكم نساءكم، وأبناءكم، وسبيكم و ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٧) [الأنفال] .

(١) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

(٢) في خ : «ردت»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٣) ليست في خ، ك، هـ، وما أثبتناه من ق .

ومنها : إن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزاة حنين، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر، فيقال : بدر وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين، والنبى ﷺ رمى وجوه المشركين بالحصاء فيهما، وبهاتين الغزاتين طفئت جمة العرب لغزو رسول الله ﷺ، والمسلمين، فالأولى : خوفتهم، وكسرت من حُدَّهم^(١)، والثانية : استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلت جمعهم^(٢)، حتى لم يجدوا بُدًّا من الدخول في دين الله .

ومنها : أن الله سبحانه جَبَرَ بها أهل مكة، وفَرَّحَهُم بما نالوه من النصر، والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وإن كان عَيْنَ جبرهم، وعرفهم تمام نعمه عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن، وأنه لم يكن لهم بهم طاقة، وإنما نصرُوا عليهم بالمسلمين: ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوهم إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله - تعالى .

فصل

وفيها من الفقه : أن الإمام ينبغي له أن يبعث العيون، ومن يدخل بين عدوه؛ ليأتيه بخبرهم، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له، وفي جيشه قوة ومنعة، لا يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم، كما سار رسول الله ﷺ إلى هوازن، حتى لقيهم بَحْنَيْن .

ومنها : أن الإمام يجوز له أن يستعير سلاح المشركين، وعدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أدراع صفوان، وهو يومئذ مشرك .

(١) في هـ : «حدثهم»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٢) في هـ : «جميعهم»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

ومنها : أن من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسيباتها قدرا، وشرعا، فإن رسول الله ﷺ، وأصحابه أكمل الخلق توكلًا، وإنما كانوا يلقون عدوهم، وهم متحصنون بأنواع السلاح، ودخل رسول الله ﷺ مكة، والبيضة على رأسه، وقد أنزل الله عليه : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وكثير ممن لا تحقيق عنده، ولا رسوخ في العلم، يستشكل هذا، ويكاسيس^(١) في الجواب تارة بأن هذا فعله تعليلًا للأمة، وتارة بأن هذا كان قبل نزول الآية، ووقعت مسألة في مصر سأل عنها بعض الأمراء، وقد ذكر له حديث ذكره أبو القاسم بن عساكر في تاريخه الكبير : أن رسول الله ﷺ كان بعد أن أهدت له اليهودية الشاة المسمومة لا يأكل طعاما قُدِّم له حتى يأكل منه من قَدَّمه .

قالوا : وفي هذا أسوة للملوك في ذلك، فقال قائل : كيف يجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧]، فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له العصمة، فهو يعلم أنه لا سبيل لبشر إليه .

فأجاب بعضهم بأن هذا يدل على ضعف الحديث، وبعضهم بأن هذا كان قبل نزول الآية، فلما نزلت لم يكن ليفعل ذلك بعدها، ولو تأمل هؤلاء أن ضمان الله له العصمة لا ينافي تعاطيه لأسبابها، لأغناهم عن هذا التكلف، فإن هذا الضمان له من ربه تبارك وتعالى، لا يناقض احتراسه من الناس ولا ينافيه، كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله، ويعليه لا يناقض أمره بالقتال، وإعداد العدة، والقوة، ورباط الخيل، والأخذ بالجد والحذر، والاحتراس من عدوه، ومحاربته بأنواع الحرب، والتورية، فكان إذا أراد الغزوة ورَّى بغيرها، وذلك لأن هذا إخبار من الله سبحانه عن عاقبة حاله، ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها [الله]^(٢)

(١) في هـ : «يتكاسيس»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٢) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

مفضية إلى ذلك مقتضية له، وهو ﷺ أعلم بربه، وأتبع لأمره^(١) من أن يعطل الأسباب التي جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر، وإظهار دينه، وغلبته لعدوه، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياته حتى يبلغ رسالاته^(٢)، ويظهر دينه وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكّل، والمشرب، والملبس، والمسكن .

وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدعاء، وزعم أنه لا فائدة فيه؛ لأن^(٣) المسؤول إن^(٤) كان قد قدر ناله، ولا بد، وإن لم يقدر لم ينله، فأى فائدة في الاشتغال بالدعاء؟ ثم تكايس في الجواب بأن قال : الدعاء عبادة فيقال لهذا الغالط : بقى عليك قسم آخر - وهو الحق - أنه قد قدر له مطلوبه بسبب إن تعاطاه حصل له المطلوب، وإن عطل السبب فاته المطلوب، والدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب، وما مثل هذا الغالط إلا مثل من يقول : إن كان الله قد قدر لى الشبع، فأنا أشبع، أكلت أو لم أكل، وإن لم يقدر لى الشبع لم أشبع أكلت، أو لم أكل فما فائدة الأكل؟ وأمثال هذه الترهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى، وشرعه، وبالله التوفيق .

فصل

وفيها : أن النبى ﷺ شرط لصفوان فى العارية الضمان، فقال : «بل عارية مضمونة»^(٥) فهل هذا إخبار عن شرعه فى العارية، ووصف لها بوصف شرعه الله فيها، وأن حكمها الضمان كما يضمن المغصوب^(٦)، أو إخبار عن ضمانها بالأداء

(١) فى هـ : «وأتبع مقتضية له ولأمره»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٢) فى خ : «رسالته»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٣) فى خ : «أن»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٤) فى خ : «إذا»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) فى هـ : «تضمن المغصوب»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

بعينها، ومعناه : إني ضامن لك تأديتها، وأنها لا تذهب بل أردّها إليك بعينها؟

هذا مما اختلف فيه الفقهاء :

فقال الشافعي وأحمد بالأول، وأنها مضمونة بالتلف، وقال أبو حنيفة ومالك بالثاني، وأنها مضمونة بالرد على تفصيل في مذهب مالك، وهو أن العين إن كانت مما لا يغاب عليه كالحیوان والعقار، لم تضمن بالتلف إلا أن يظهر كذبه، وإن كانت مما يغاب عليه كالحلى ونحوه ضمنت بالتلف إلا أن يأتي بينة تشهد على التلف، وسر مذهبه : أن العارية أمانة غير مضمونة كما قال أبو حنيفة، إلا أنه ^(١) لا يقبل قوله فيما يخالف الظاهر، فلذلك فرق بين ما يغاب عليه وما لا يغاب عليه .

ومأخذ المسألة : أن قوله ﷺ لصفوان : «بل عارية مضمونة» هل أراد به أنها مضمونة بالرد، أو بالتلف؟ أى : أضمنها إن تلفت، أو أضمن لك ردها، وهو يحتمل الأمرين، وهو في ضمان الرد أظهر لثلاثة أوجه :

أحدها : أن في اللفظ الآخر : «بل عارية مُؤَدَّاة» ^(٢)، فهذا يبين أن قوله : «مضمونة» المراد به : مضمونة ^(٣) بالأداء .

الثانى : أنه لم يسأله عن تلفها، وإنما سأله : هل تأخذها منى أخذ غصب تحول بينى وبينها؟ فقال : «لا، بل أخذ عارية أؤديها إليك»، ولو كان سأله عن تلفها، وقال : أخاف أن تذهب، لناسب أن يقول : أنا ضامن لها إن تلفت .

الثالث : أنه جعل الضمان صفة لها نفسها، ولو كان ضمان تلف لكان الضمان لبدلها، فلما وقع الضمان على ذاتها دل على أنه ضمان أداء .

(١) في خ : «أن» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

(٢) أبو داود في البيوع (٣٥٦٦)، والنسائي في الكبرى في العارية (٥٧٧٦)، وصححه الألبانى .

(٣) في خ : «المضمونة» ، وما أثبتناه من ق ، ك ، هـ .

فإن قيل : ففي القصة أن بعض الدروع ضاع، فعرض عليه النبي ﷺ أن يضمناها، فقال : أنا اليوم في الإسلام أرغب .

قيل : هل عرض عليه أمرا واجبا، أو أمرا جائزا مستحبا الأولى فعله، وهو من مكارم الأخلاق، والشيم، ومن محاسن الشريعة؟ وقد يترجح الثاني بأنه عرض عليه الضمان، ولو كان الضمان واجبا لم يعرضه عليه، بل كان يفى له به، ويقول : هذا حقك، كما لو كان الذاهب بعينه موجودا، فإنه لم يكن ليعرض عليه رده، فتأمله.

فصل

وفيها : جواز عقر فرس العدو، ومركوبه، إذا كان ذلك عوناً على قتله، كما عقر علي عليه السلام بعير حامل راية الكفار، وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهى عنه .

وفيها : عفو رسول الله ﷺ عن من هَمَّ بقتله، ولم يعاجله، بل دعا له، ومسح صدره، حتى عاد كأنه ولى حميم .

ومنها : ما ظهر في هذه الغزاة من معجزات النبوة، وآيات الرسالة، من إخباره لشبيبة بما أضمر في نفسه، ومن ثباته، وقد تولى عنه الناس، وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقد استقبلته^(١) كتائب المشركين .

ومنها : إيصال الله سبحانه قبضته التي رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه، وبركته في تلك القبضة حتى ملأت أعين القوم، إلى غير ذلك من معجزاته فيها، كنزول الملائكة للقتال معه، حتى رآهم العدو جهرة، ورآهم بعض المسلمين .

(١) في هـ : «استقبله»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

ومنها : جواز انتظار الإمام بقسم الغنائم إسلام الكفار، ودخولهم في الطاعة، فإيرد^(١) عليهم غنائمهم، وسبيهم، وفي هذا دليل لمن يقول : إن الغنينة إنما تملك بالقسمة لا بمجرد الاستيلاء عليها، إذ لو ملكها المسلمون بمجرد الاستيلاء لم يستأنى بهم النبي ﷺ ليردها عليهم، وعلى هذا : فلو مات من الغانمين أحد قبل القسمة، أو إحرارها بدار الإسلام، رد نصيبه على بقية الغانمين دون ورثته، وهذا مذهب أبى حنيفة : لو مات قبل الاستيلاء لم يكن لورثته شىء ولو مات بعد القسمة فسهمه لورثته .

فصل

وهذا العطاء الذى أعطاه النبي ﷺ لقريش، والمؤلفة قلوبهم، هل هو من أصل الغنينة، أو من الخمس، أو من خمس الخمس؟ فقال الشافعى، ومالك : هو من خمس الخمس، وهو سهمه ﷺ الذى جعله^(٢) الله من الخمس، وهو غير الصَّفِيِّ، وغير ما يصيبه من المغنم؛ لأن النبي ﷺ لم يستأذن الغانمين^(٣) فى تلك العطية، ولو كان العطاء من أصل الغنينة لاستأذنهم لأنهم ملكوها بحوزها، والاستيلاء عليها، وليس من أصل الخمس؛ لأنه مقسوم على خمسة، فهو إذن من خمس الخمس، وقد نص الإمام أحمد على أن النفل يكون من أربعة أخماس الغنينة .

وهذا العطاء هو من النفل نفل النبي ﷺ به رؤوس القبائل، والعشائر ليتألفهم به وقومهم على الإسلام، فهو أولى بالجواز من تنفيل الثلث بعد الخمس، والربع بعده، لما فيه من تقوية الإسلام، وشوكته، وأهله، واستجلاب عدوه إليه وهكذا

(١) فى خ : «يعود»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٢) فى ق : «جعل»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ .

(٣) فى هـ : «للغانمين»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

وقع سواء، كما قال بعض هؤلاء الذي نفلهم : لقد أعطاني رسول الله ﷺ، وإنه لأبغض الخلق إلى، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلى، فما ظنك بعتاء قَوَى الإسلام وأهله، وأذل الكفر وحزبه، واستجلب به قلوب رؤوس القبائل والعشائر، الذين إذا غضبوا غضب لغضبهم أتباعهم، وإذا رضوا رضوا لرضاهم، فإذا أسلم هؤلاء لم يتخلف عنهم أحد من قومهم، فله ما أعظم موقع هذا العطاء، وما أجده، وأنفعه للإسلام، وأهله .

ومعلوم : أن الأنفال لله ولرسوله، يقسمها رسوله حيث أمره، لا يتعدى الأمر، فلو وضع الغنائم بأسرها في هؤلاء لمصلحة الإسلام العامة لما خرج عن الحكمة، والمصلحة، والعدل .

ولما عميت أبصار ذى الحُويصرة التميمي وأضرابه عن هذه المصلحة والحكمة، قال له قائلهم : اعدل فإنك لم تعدل، وقال مُشبهه : إن هذه لقسمة^(١) ما أريد بها وجه الله، ولعمر الله إن هؤلاء من أجهل الخلق برسوله، ومعرفته^(٢) بربه، وطاعته له وتام عدله، وإعطائه لله، ومنعه لله، والله سبحانه أن يقسم الغنائم كما يحب، وله أن يمنعها الغانمين جملة كما منعهم غنائم مكة، وقد أوجفوا عليها بخيلهم، وركابهم، وله أن يسلط عليها نارا من السماء تأكلها وهو في ذلك كله أعدل العادلين، وأحكم الحاكمين، وما فعل ما فعله من ذلك عبثا، ولا قدره سُدى، بل هو عين المصلحة، والحكمة، والعدل، والرحمة مصدره كمال علمه، وعزته وحكمته، ورحمته .

ولقد أتم نعمته على قوم ردهم إلى منازلهم برسوله ﷺ، يقودونه إلى ديارهم وأرضي من لم يعرف قدر هذه النعمة بالشاء^(٣)، والبعير كما يعطى الصغير ما يناسب

(١) في ق : «القسمة»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٢) في هـ : «بمعرفته»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٣) في هـ : «بالشاء»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

عقله ومعرفته، ويعطى العاقل اللبيب ما يناسبه، وهذا فضله، وهذا فضله، وليس هو سبحانه تحت حجر أحد من خلقه، فيوجبون عليه بعقولهم، ويحرمون، ورسوله منفذ لأمره .

فإن قيل : فلو دعت حاجة الإمام في وقت من الأوقات إلى مثل هذا مع عدوه هل يسوغ له ذلك؟

قيل : الإمام نائب عن المسلمين يتصرف لمصالحهم، وقيام الدين، فإن تعين ذلك للدفع عن الإسلام، والذب عن حوزته^(١)، واستجلاب رؤوس أعدائه إليه ليأمن المسلمون^(٢) شرهم، ساغ له ذلك بل تعين عليه، وهل تجوز الشريعة غير هذا، فإنه وإن كان في الحرمان^(٣) مفسدة، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما^(٤)، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين، وبالله التوفيق .

فصل

وفيهما : أن النبي ﷺ قال : «من لم يُطَيَّب^(٥) نفسه، فله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفى الله علينا»^(٦) .

(١) في خ : «حوزتهم»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٢) في خ : «المسلمين»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٣) في ق : «الإجرام»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ .

(٤) في ق : «أدناهم»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ .

(٥) في هـ : «يطب»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٦) سبق تخريجه .

ففى هذا دليل على جواز بيع الرقيق بل^(١) الحيوان بعضه ببعض نساء^(٢)، ومتفاضلا .

وفى السنن من حديث عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ أمره أن يجهز جيشا، فنفدت الإبل، فأمره أن يأخذ على قلائص الصدقة، وكان يأخذ البعير بالبعيرين إلى إبل الصدقة^(٣) .

وفى السنن عن ابن عمر، عنه ﷺ أنه نهى عن بيع الحيوان بالحيوان نسيئة . ورواه الترمذى من حديث الحسن، عن سَمُرَةَ، وصححه^(٤) .

وفى الترمذى من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبى الزبير، عن جابر، قال : قال رسول الله ﷺ : «الحيوان اثنان بواحد لا يصلح نساءً، ولا بأس به يدا بيد»، قال الترمذى : حديث حسن^(٥) .

فاختلف الناس فى هذه الأحاديث على أربعة أقوال، وهى روايات عن [الإمام]^(٦) أحمد .

أحدهما : جواز ذلك متفاضلا، ومتساويا نسيئة، ويدا بيد، وهى مذهب أبى حنيفة والشافعى .

(١) فى خ : «قتل»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٢) فى هـ : «نساء»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٣) أحمد (٢ / ١٧١)، (٦٥٩٣)، (٢ / ٢١٦)، (٧٠٢٥) وقال شاكر : «إسناده صحيح»، وأبو داود فى النبوع (٣٣٥٧) .

والقلائص : جمع قُلُوص، وهى الناقة الشابة .

(٤) الترمذى فى النبوع (١٢٣٧)، وقال : «حسن صحيح»، وابن ماجه فى التجارات (٢٢٧٠)، وصححه الألبانى . وحديث ابن عمر لم نقف عليه عند أحد من أهل السنن .

(٥) الترمذى فى النبوع (١٢٣٨)، وقال : «حسن صحيح»، وابن ماجه فى التجارات (٢٢٧١)، وصححه الألبانى .

(٦) ليست فى خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

والثانى : لا يجوز ذلك نسيئة، ولا متفاضلا .

والثالث : يحرم الجمع بين النساء والتفاضل، ويجوز البيع مع أحدهما، وهو قول مالك - رحمه الله .

والرابع : إن اتحد الجنس جاز التفاضل وحرم النساء، وإن اختلف الجنس جاز التفاضل والنساء .

وللناس في هذه الأحاديث والتأليف بينها ثلاثة^(١) مسالك :

أحدها : تضعيف حديث الحسن عن سَمُرَةَ؛ لأنه لم يسمع منه سوى حديثين ليس هذا منهما، وتضعيف حديث الحجاج بن أرطاة .

والمسلك الثانى : دعوى النسخ، وإن لم يتبين المتأخر منها من المتقدم، ولذلك وقع الاختلاف .

والمسلك الثالث : حملها على أحوال مختلفة، وهو أن النهى عن بيع الحيوان بالحيوان نسيئة إنما كان؛ لأنه ذريعة إلى النسيئة فى الربويات، فإن البائع إذا رأى ما فى هذا البيع من الربح لم تقتصر نفسه عليه، بل تجره إلى بيع الربوى كذلك^(٢)، فَسَدَّ عليهم الذريعة، وأباحه يدا بيد، ومنع من النساء فيه، وما حرم للذريعة يباح للمصلحة الراجحة، كما أباح من المزابنة العرايا^(٣) للمصلحة الراجحة، وأباح ما

(١) فى النسخ : «ثلاث» .

(٢) فى هـ : «لذلك»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٣) المزابنة : هى بيع الرُّطْب فى رؤوس النخل بالتمر، وأصله من الزَّيْن وهو الدَّفْع، كأن كل واحد من المتبايعين يَرْبى صاحبه عن حقه بما يزداد منه . وإنما نهى عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة . والعرايا : هو أن من لا تَخُل له من ذوى الحاجة يدرك الرُّطْب ولا تَقْد بيده يشترى به الرطْب لعباله، ولا نخل له يطعمهم منه، ويكون قد فَضَّل له من قوته تمر، فيجىء إلى صاحب النخل فيقول له : يعنى ثمر نخلة أو نخلتين بخرصها من التمر، فيعطيه ذلك الفاضل من التمر بثمر تلك النخلات ليُصيب من رُطْبها مع الناس .

تدعو إليه الحاجة^(١) منها، وكذلك بيع الحيوان بالحيوان نسيئة متفاضلا في هذه القصة، وفي حديث ابن عمر^(٢) إنما وقع في الجهاد، وحاجة المسلمين إلى تجهيز الجيش، ومعلوم أن مصلحة تجهيزه أرجح من المفسدة التي في بيع الحيوان بالحيوان نسيئة، والشرعية لا تعطل المصلحة الراجحة لأجل المرجوحة .

ونظير هذا جواز لبس الحرير في الحرب، وجواز الخيلاء فيها إذ مصلحة ذلك أرجح من مفسدة لبسه .

ونظير ذلك لباسه القباء^(٣) الحرير الذي أهده له ملك أيلة ساعة، ثم نزعها للمصلحة الراجحة في تأليفه وجبره، وكان هذا بعد النهي عن لباس الحرير كما بيناه مستوفي في كتاب التخيير فيما^(٤) يحل ويحرم من لباس الحرير، وبيننا أن هذا كان عام الوفود سنة تسع، وأن النهي عن لباس الحرير كان قبل ذلك، بدليل أنه نهى عمر عن لبس الخلة الحرير التي أعطاها إياها، فكساها عمر أخاه مشركا بمكة، وهذا كان قبل الفتح، ولباسه هدية ملك أيلة كان بعد ذلك .

ونظير هذا نهيه ﷺ عن الصلاة قبل طلوع الشمس وبعد العصر سدا لذريعة التشبه^(٥) بالكفار وأباح ما فيه مصلحة راجحة من قضاء الفوائت، وقضاء السنن، وصلاة الجنازة، وتحية المسجد؛ لأن مصلحة فعلها أرجح من مفسدة النهي، والله أعلم .

وفي القصة دليل على أن المتعاقدين إذا جعل بينهما أجلا غير محدود، جاز إذا اتفقنا عليه ورضيا به، وقد نص أحمد على جوازه في^(٦) رواية عنه في الخيار مدة غير

(١) في هـ: «للحاجة»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٢) في هـ: «ابن عمرو»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٣) في هـ: «القباء»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٤) في خ: «بها»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٥) في هـ: «التشبيه»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٦) في هـ: «في جوازه على»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

محدودة، أنه يكون جائزا حتى يقطعه، وهذا هو الراجح، إذ لا محذور في ذلك، ولا عذر^(١)، وكل منهما قد دخل على بصيرة ورضى بموجب العقد، وكلاهما في العلم به سواء، فليس لأحدهما مزية على الآخر، فلا يكون ذلك ظلما .

فصل

وفي هذه الغزوة أنه قال : من قَتَلَ قتيلا له عليه بينة، فله سَلْبُهُ^(٢)، وقاله في غزوة أخرى قبلها، فاختلف الفقهاء : هل هذا السلب مستحق بالشرع، أو بالشرط؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد :

أحدهما : أنه له بالشرع، شرطه الإمام أو لم يشرطه، وهو قول الشافعي .

والثاني : أنه لا يستحق إلا بشرط الإمام، وهو قول أبي حنيفة، وقال مالك : لا يستحق إلا بشرط الإمام بعد القتال، فلو نص قبله لم يجز، قال مالك : ولم يبلغني أن النبي ﷺ قال ذلك إلا يوم حنين، وإنما نفل النبي ﷺ بعد أن برد القتال .

ومأخذ النزاع : أن النبي ﷺ كان هو الإمام، والحاكم، والمفتي، وهو الرسول، فقد يقول الحكم بمنصب^(٣) الرسالة، فيكون شرعا عاما إلى يوم القيامة، كقوله : «من أ حَدَّثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»^(٤)، وقوله : «من زرع في أرض قوم بغير إذنهم فليس له من الزرع شيء، وله نفقته»^(٥)، وكحكمه بالشاهد، واليمين^(٦)،

(١) في خ، هـ : «غرر»، وما أثبتناه من ق، ك.

(٢) البخاري في فرض الخمس (٣١٤٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٥١ / ٤١) .

(٣) في هـ : «المنصب»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٤) أحمد (١ / ١٤٦)، والبخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأفضية (١٧١٨ / ١٧) .

(٥) أبو داود في البيوع (٣٤٠٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٦٦)، وقال : «حسن غريب»، وابن ماجه

في الرهون (٢٤٦٦)، وصححه الألباني .

(٦) مسلم في الأفضية (١٧١٢ / ٣) .

وبالشفعة فيما لم يُقَسَم^(١).

وقد يقول بمنصب^(٢) الفتوى، كقوله لهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان، وقد شكت إليه شح زوجها، وأنه لا يعطيها ما يكفيها: «خُذِي ما يكفيك، وولدتك بالمعروف»^(٣)، فهذه فتيا لا حكم، إذ لم يَدْعُ بأبى سفيان، ولم يسأله عن جواب الدعوى، ولا سألها البيعة.

وقد يقول بمنصب الإمامة، فيكون مصلحة للأمة في ذلك الوقت، وذلك المكان، وعلى تلك الحال^(٤)، فيلزم من بعده من الأئمة^(٥) مراعاة ذلك على حسب المصلحة التي راعاها النبي ﷺ زمانا، ومكانا، وحالا.

ومن ها هنا تختلف الأئمة في كثير من المواضع التي فيها أثر عنه ﷺ كقوله ﷺ: «من قتل قتيلًا فله سَلْبُهُ»^(٦)، هل قاله بمنصب الإمامة، فيكون حكمه متعلقا بالأئمة، أو بمنصب الرسالة والنبوة، فيكون شرعا عاما؟

وكذلك قوله: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»^(٧)، هل هو شرع عام لكل أحد أذن فيه الإمام، أو لم يأذن، أو هو راجع إلى الأئمة فلا تملك بالإحياء إلا بإذن الإمام؟ على القولين:

فالأول: للشافعي وأحمد، في ظاهر مذهبهما.

(١) البخاري في الشفعة (٢٢٥٧)، ومسلم في المساقاة (١٦٠٨ / ١٣٣).

(٢) في ق: «المنصب»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٣) البخاري في النفقات (٥٣٦٤)، ومسلم في الأفضية (١٧١٤ / ٧).

(٤) في خ: «الحالة»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٥) في ق: «الأئمة»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) البخاري معلقا في الحرث والمزارعة (الفتح ١٨ / ٥)، ووصله مالك في الموطأ في الأفضية

(٢٧) (٧٤٤ / ٢) من قول عمر، ورواه أبو داود في الخراج والإمارة والنفق (٣٠٧٣)،

والترمذي في الأحكام (١٣٧٨) مرفوعا، وقال الترمذي: «حسن غريب»، ومالك في الموطأ

(٢ / ٧٤٣) (٢٦) مرسلًا، وصححه الألباني.

والثاني : لأبى حنيفة، وفرق مالك بين الفلوات الواسعة، وما لا يتشاح فيه الناس، وبين ما يقع فيه التشاح، فاعتبر إذن الإمام في الثاني دون الأول .

فصل

وقوله : «له عليه بيعة» دليل ^(١) على مسألتين :

إحداهما : أن دعوى القاتل أنه قتل هذا الكافر، لا تقبل في استحقاق سلبه .

الثانية : الاكتفاء في ثبوت هذه الدعوى بشاهد واحد من غير يمين، لما ثبت في الصحيح عن أبى قتادة قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلا من المشركين قد علا رجلا من المسلمين، فاستدرت ^(٢) إليه حتى أتيته من ورائه فضربته على جبل عاتقه، وأقبل على فضمني ضمة، وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلنى، فلحققت عمر بن الخطاب، فقال : ما للناس؟ فقلت : أمر الله، ثم إن الناس رجعوا وجلس رسول الله ﷺ، فقال : «من قتل قتيلا له عليه بيعة فله سلبه»، قال : فقممت، فقلت : من يشهد لى؟ ثم جلست، ثم قال مثل ذلك، قال : فقممت، فقلت : من يشهد لى؟ ثم قال ذلك الثالثة، فقممت، فقال رسول الله ﷺ : ما لك يا أبا قتادة؟ فقصصت عليه القصة، فقال رجل من القوم : صدق يا رسول الله، وسلبُ ذلك القتيل عندى، فأرضه من حقه، فقال أبو بكر الصديق ؓ : لآها الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله، فيعطيك سلبه، فقال رسول الله ﷺ : «صَدَقَ فَأَعْطِهِ إِيَّاهُ»، فأعطاني، فبعت ^(٣) الدرع، فابتعت به مخرفاً في بنى سلمة، فإنه لأول مال تأثَّلت في

(١) في هـ : «يدل»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٢) في خ : «فاشتردت»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

(٣) في خ : «فابتعت»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ [آل عمران]، وقوله : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ﴾ ^(١) [آل عمران : ١٨] إلى أضعاف ذلك مما ورد في القرآن، والسنة من إطلاق لفظ الشهادة على الخبر المجرد عن لفظة ^(٢) أشهد .

وقد تنازع الإمام أحمد، وعلى بن المديني في الشهادة للعشرة بالجنة، فقال على : أقول : هم في الجنة، ولا أقول : أشهد أنهم في الجنة، فقال الإمام أحمد : متى قلت : هم ^(٣) في الجنة، فقد شهدت، وهذا تصريح منه بأنه لا يشترط في الشهادة لفظة أشهد، وحديث أبي قتادة من أبين الحجج في ذلك .

فإن قيل : إخبار من كان عنده السلب إنما كان إقرارا بقوله : هو عندي، وليس ذلك من الشهادة في شيء .

قيل : تضمن كلامه شهادة وإقرارا بقوله : «صدق» شهادة له بأنه قتله، وقوله هو : «عندي» إقرار منه بأنه عنده، والنبى ﷺ إنما قضى بالسلب بعد البينة، وكان تصديق هذا هو البينة .

فصل

وقوله ﷺ : «فَلَهُ سَلْبُهُ» : دليل على أن له سلبه كله غير مخموس، وقد صرح بهذا في قوله لسلمة بن الأكوع لما قتل قتيلا : «له سلبه أجمع» .
وفي المسألة ثلاثة مذاهب، هذا أحدها .

(١) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

(٢) في ق : «اللفظ»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ .

(٣) في خ : «إنهم»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

والثاني : أنه يُخْمَسُ^(١) كالغنيمة، وهذا قول الأوزاعي، وأهل الشام، وهو مذهب ابن عباس لدخوله في آية الغنيمة .

والثالث : أن الإمام إن استكثره خَمَسَهُ، وإن استقله لم يَحْمَسُهُ، وهو قول إسحاق، وفعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فروى سعيد في سننه عن ابن سيرين، أن البراء بن مالك بارز مَرْزُبانَ المَرَاذِيَةِ^(٢) بالبحرين، فطعنه، فدق صلبه، وأخذ سواريه، وصلبه، فلما صلى عمر الظهر أتى البراء في داره، فقال: إنا كنا لا نخمس السلب، وإن سلب البراء قد بلغ مالا، وأنا خامسه، فكان أول سلب خمس في الإسلام سلب البراء، بلغ ثلاثين ألفا، والأول : أصبح فإن رسول الله ﷺ لم يَحْمَسِ السلب، وقال : « هو له أجمع »، ومضت على ذلك سنته، وسنة الصديق بعده، وما رآه عمر اجتهد أداه إليه رأيه .

فصل

والحديث يدل^(٣) على أنه من أصل^(٤) الغنيمة، فإن النبي ﷺ قضى به للقاتل، ولم ينظر في قيمته وقدره، واعتبار خروجه من خمس الخمس، وقال مالك : هو من خمس الخمس، ويدل على أنه يستحقه من يسهم له، ومن لا يسهم له من صبي، وامرأة، وعبد ومشرک .

وقال الشافعي في أحد قوليه : لا يستحق السلب إلا من يستحق السهم؛ لأن السهم المجمع عليه، إذا لم يستحقه العبد، والصبي، والمرأة، والمشرک، فالسلب أولى .

(١) في هـ : «أنها تخمس»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٢) المَرَزِيَّة : رياسة الفُرس، ومَرْزُبانهم : أى رئيسهم .

(٣) في هـ : «وفي الحديث دليل»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٤) في خ : «أهل»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ .

والأول أصح للعموم؛ ولأنه جار مجرى قول الإمام : من فعل كذا، أو دل على حصن، أو جاء برأس، فله كذا مما فيه تحريض على الجهاد، والسهم مستحق بالحضور، وإن لم يكن منه فعل، والسلب مستحق بالفعل، فجرى مجرى الجعالة^(١).

فصل

وفيه دلالة على أنه يستحق سلب جميع من قتله، وإن كثروا، وقد ذكر أبو داود أن أبا طلحة قتل يوم حنين عشرين رجلا، فأخذ أسلابهم^(٢).

(١) الجعالة : هي أن يكتب الغزو على الرجل فيعطى رجلا آخر شيئا ليخرج مكانه، أو يدفع المقيم إلى الغازي شيئا فيقيم الغازي ويخرج هو .
(٢) أبو داود في الجهاد (٢٧١٨)، وقال : « هذا حديث حسن »، وصححه الألباني .

فصل

في غزوة الطائف

في شوال سنة ثمان . قال ابن سعد : قالوا : ولما أراد رسول الله ﷺ المسير إلى الطائف بعث الطَّقِيل بن عمرو إلى ذى الكَفَّين - صنم عمرو بن حُمَمة الدوسى - يهدمه، وأمره أن يستمدَّ قومه، ويوافيه بالطائف، فخرج سريعا إلى قومه، فهدم ذا الكفين، وجعل يُحْشَسُ^(١) النار في وجهه ويُحَرِّقُه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبَادِكَ ميلادنا أَقْدَمُ من ميلادِكَ

أنا^(٢) حششت النار في فؤادِكَ

وانحدر معه من قومه أربعمئة سراعاً، فوافوا النبى ﷺ بالطائف بعد مقدمه، بأربعة أيام وقدم بدَبَابَةٍ، وَمَنْجَنِيْقٍ^(٣) .

قال ابن سعد : ولما خرج رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف، قدم خالد بن الوليد على مقدمته، وكانت ثقيف قد رَمُّوا حصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلحهم لهم لسنة، فلما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم، وأغلقوه عليهم، وتهيؤوا للقتال، وسار رسول الله ﷺ، فنزل قريبا من حصن الطائف، وعسكر هناك فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا، كأنه رَجْلٌ جَرَادٍ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل

(١) في ق: «يحشو»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٢) في ق: «إنى»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢ / ١١٩، ١٢٠). والدَّبَابَةُ: آلة من آلات الحرب، كانت تصنع - يومئذ - من جلود وخشب، يدخل فيها الرجال ويُقَرَّبُونَهَا من الحصن المحاصر لينقبوه، وتقبيهم ما يُزَمُّونَ به من فوقهم - والمنجنيق: آلة تُرمى بها الحجارة الثقيلة ونحوها لِدُكُ الحصون .

منهم اثنا^(١) عشر رجلا، فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أم سلمة، وزينب، فضرب لهما قبتين وكان يصلى^(٢) بين القبتين مدة حصار الطائف، فحاصرهم ثمانية^(٣) عشر يوما^(٤)، وقال ابن إسحاق: بضعا وعشرين ليلة.

ونصب عليهم المنجنيق، وهو أول ما^(٥) رمى به في الإسلام.

وقال ابن سعد: أنبا^(٦) قَيْصَةَ، أنا سفيان، عن ثور بن يزيد، عن مكحول، أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوما^(٧).

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان يوم الشَّدْحَةِ عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابه، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه^(٨) فأرسلت عليهم ثقيف سَكَّ الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل، فقتلوا منهم رجالا، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون^(٩).

قال ابن سعد: فسألوه أن يدعها لله وللرحم، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أدعها لله وللرحم»، فنادى منادى رسول الله ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن، وخرج إلينا فهو حر فخرج منهم بضعة عشر رجلا، فيهم أبو بكر، فأعتقهم رسول الله ﷺ،

(١) في هـ: «اثني»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٢) في هـ: «يصل»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٣) في هـ: «اثني»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٢٠).

(٥) في ق: «من»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٦) في ق: «أنا»، وما أثبتناه من خ، ك، هـ.

(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٢١). وانظر: صحيح مسلم في الزكاة (١٠٥٩/ ١٣٦) عن

أنس.

(٨) في هـ: «ليحرقوه»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٩) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٢١، ١٢٢).

ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يَمُوتُهُ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة .

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، واستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقال : ما ترى؟ فقال : ثعلب في جُحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرَّك^(١) . فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا : نرحل، ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ «فاغدوا على القتال»، فغدوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ : «إنا قافلون [غدا]^(٢)» إن شاء الله، فَسَرُّوا بذلك، وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك، فلما ارتحلوا، واستقلوا قال : «قولوا : آيئون تائبون عابدون لِرَبِّنا حامدون»، وقيل : يا رسول الله، ادع الله على ثقيف، فقال : «اللهم أهْدِ ثقيفا، وائت بهم»^(٣) .

واستشهد مع رسول الله ﷺ بالطائف جماعة، ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف عن الجِعْرانة، ثم دخل منها محرما بعمرة، ففضى عمرته، ثم رجع إلى المدينة .

فصل

قال ابن إسحاق : وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر، وفد ثقيف، وكان من حديثهم : أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم أتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع

(١) في هـ : «لم يضرَّك»، وما أثبتناه من خ، ق، ك .

(٢) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٢٠، ١٢١) . وانظر : صحيح مسلم في الجهاد والسير

(١٧٧٨/ ٨٢) وفي الحج (١٣٤٤/ ٤٢٨)، وأحمد (٣/ ٣٤٣) .

إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «كما يتحدث قومك^(١) أنهم قاتلوك»، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم كذلك محبياً مطاعاً، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على عُلْيَةٍ له وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، فقبل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفونى معهم، فدفنوه معهم، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: «إن مثله في قومه كمثله صاحب يس في قومه».

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم اتتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا، وأسلموا، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو بن عُمَيْرٍ، وكان في سن عروة بن مسعود، وعرضوا عليه ذلك، فأبى أن يفعل، وخشى أن يصنع به إذا فعل^(٢) كما صنع بعروة، فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجلاً، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بنى مالك، فيكونون ستة، فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وهب، وشُرْحَبِيل بن غَيْلان، ومن بنى مالك عثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف، ونُمَيْر بن خَرْشَة.

فخرج بهم، فلما دنوا من المدينة، ونزلوا قناة أَلْفوا بها المغيرة بن شعبة، فاشتد لبيشر رسول الله ﷺ بقدمهم عليه، فلقيه أبو بكر ﷺ فقال: [لما]^(٣) أقسمت عليك

(١) في خ: «قومه»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٢) في هـ: «رجع»، وما أثبتناه من خ، ق، ك، هـ.

(٣) ليست في خ، ق، ك، هـ، وما أثبتناه من هـ.

بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه، ففعل، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدمهم عليه، ثم خرج المغيرة على أصحابه فرَّوَحَ الظهر معهم، وعلمهم كيف يُحيُّون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية^(١) الجاهلية، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قُبَّة في ناحية مسجده كما يزعمون .

وكان خالد بن سعيد بن العاص، هو الذي يمشى بينهم، وبين رسول الله ﷺ حتى اكتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتبه، وكانوا لا يأكلون طعاما [مما]^(٢) يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا .

وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهى اللات، لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا بعد قدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون^(٣) أن يَسْلَمُوا بتركها من سفهائهم، ونسائهم، وذرائعهم، ويكرهون أن يُروِّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام .

فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة، يهدمانها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وألا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «أما كَسَرُ أوثانكم بأيديكم، فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه»، فلما أسلموا، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا أمرَ عليهم عثمان بن أبى العاص، وكان من أحدثهم سنا، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلُّم القرآن .

فلما فرغوا من أمرهم، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله ﷺ معهم

(١) في هـ: «تحية»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٢) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ.

(٣) في خ: «يظهر»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية، فخرجوا^(١) مع القوم حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال: ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بهاله بذى الهدم، فلما دخل المغيرة ابن شعبة علاها يضربها بالمعول، وقام دونه بنو مُعْتَب خشيّة أن يرمى، أو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساء ثقيف حُسْرًا يبكين عليها، ويقول أبو سفيان - والمغيرة يضربها بالفأس -: واهّا^(٢) لك، واهّا لك، فلما هدمها المغيرة، وأخذ مالها، وحُلِّيها أرسل إلى أبي سفيان مجموع مالها من الذهب والفضة، والجزع^(٣).

وقد كان أبو مَليح بن عروة، وقارب بن الأسود قدما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف حين قتل عروة، يريدان^(٤) فراق ثقيف، وألا يجامعاهم^(٥) على شيء أبداً، فأسلما، فقال لهما رسول الله ﷺ: «تَوَلَّيَا مِنْ شَيْئِنَا» فقالا: نتولى الله، ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «وَحَالَكُمَا أبا سفيان بن حرب» فقالا: وخالنا أبا سفيان.

فلما أسلم أهل الطائف سأل أبو مَليح رسول الله ﷺ أن يقضى عن أبيه عروة دينا كان عليه من مال الطاغية، فقال له رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال له قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله، فاقضه - وعروة، والأسود أخوان لأب وأم - فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْأَسْوَدَ مَاتَ مُشْرِكًا»، فقال [قارب بن]^(٦) الأسود: يا رسول الله، لكن تَصِلُ مسلماً ذا قرابة يعنى نفسه، وإنما الدين على، وأنا الذى أطلب به، فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضى دين عروة، والأسود من مال الطاغية، ففعل.

وكان كتاب رسول الله ﷺ الذى كتب لهم: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد

(١) في خ: «فخرجنا»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٢) وَاَهَّا كلمة تَعَجُّب.

(٣) الجزع: الخرز اليبانى، وهو الذى فيه بياض وسواد تُشَبَّه به الأعين.

(٤) في خ: «يران»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٥) في خ: «يجامعاهما»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٦) ليست في ق، ك، وما أثبتناه من خ، هـ.

النبى رسول الله إلى المؤمنين، إن عِضَاهُ وَجَّ، وَصَيْدَهُ حَرَامٌ لَا يُعْصَدُ، وَمَنْ وَجَدَ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَجْلِدُ، وَتَنْزَعُ ثِيَابُهُ، فَإِنْ تَعَدَّى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ، فَيُبَلِّغُ بِهِ [إِلَى] ^(١) النَّبِىِّ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ هَذَا أَمْرُ النَّبِىِّ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَكُتِبَ ^(٢) خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ بِأَمْرِ الرَّسُولِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَلَا يَتَعَدَّاهُ أَحَدٌ، فَيُظْلَمُ نَفْسُهُ فِيهَا أَمْرٌ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٣).

فهذه قصة ثقيف من أولها إلى آخرها سقناها كما هى، وإن تخلل بين غزوها، وإسلامها غزاة تبوك، وغيرها، ولكن أثرنا ألا نقطع قصتهم، وأن ننظم أولها بآخرها؛ ليقع الكلام على فقه هذه القصة، وأحكامها في موضع واحد. فنقول:

فيها من الفقه: جواز القتال في الأشهر الحرم، ونسخ تحريم ذلك، فإن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة في أواخر رمضان بعدما مضى ثمانى عشرة ليلة منه، والدليل عليه: ما رواه أحمد في مسنده: حدثنا إسماعيل، عن خالد الحذاء، عن أبى قلابة، عن أبى الأشعث، عن شداد بن أوس، أنه مر مع رسول الله ﷺ زمن الفتح على رجل يحتجم بالبقيع لثمانى عشرة [ليلة] ^(٤) خلت من رمضان، وهو آخذ بيدي، فقال: «أَفْطَرَ الْحَاجِمُ وَالْمَحْجُومُ» ^(٥). وهذا أصح من قول من قال: إنه خرج لعشر خلون من رمضان، وهذا الإسناد [على] ^(٦) شرط مسلم، فقد روى به بعينه ^(٧): «إن الله كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» ^(٨).

(١) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ.

(٢) في هـ: «كتب»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٨٠ - ١٨٥).

(٤) ليست في خ، ك، هـ، وما أثبتناه من ق.

(٥) أبو داود في الصوم (٢٣٦٧)، وابن ماجه في الصيام (١٦٨٠)، وصححه الألبانى.

(٦) ليست في خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ.

(٧) في خ: «بعضه»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

(٨) مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥/ ٥٧)، وأبو داود في الأضاحى (٢٨١٥)، والترمذى في الديات

(١٤٠٩)، والنسائى في الضحايا (٤٤١٢)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠).

وأقام بمكة تسع عشرة^(١) ليلة يقصر الصلاة، ثم خرج إلى هوازن، فقاتلهم، وفرغ منهم، ثم قصد الطائف، فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة في قول ابن إسحاق، وثمانى عشرة ليلة في قول ابن سعد، وأربعين ليلة في قول مكحول، فإذا تأملت ذلك علمت أن بعض مدة الحصار في ذى القعدة ولا بد، ولكن قد يقال: لم يبتدئ القتال إلا في شوال، فلما شرع فيه لم يقطعه للشهر^(٢) الحرام، ولكن من أين لكم أن رسول الله ﷺ ابتدأ قتالا في شهر حرام؟ وفرق بين الابتداء والاستدامة.

فصل

ومنها: جواز غزو الرجل، وأهله معه، فإن النبي ﷺ كان معه في هذه الغزاة^(٣) أم سلمة وزينب.

فصل

ومنها: جواز نصب المنجنيق على الكفار، ورميهم به، وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية.

ومنها: جواز قطع شجر الكفار، إذا كان ذلك يضعفهم، ويغيظهم، وهو أنكى فيهم.

ومنها: أن العبد إذا أبق من المشركين، ولحق بالمسلمين صار حرا، قال سعيد بن منصور: حدثنا يزيد بن هارون، عن الحجاج، عن مِقْسَم^(٤)، عن ابن عباس، قال:

(١) في هـ: «عشر»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٢) في هـ: «الشهر»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٣) في هـ: «الغزوة»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٤) في خ: «الحجاج بن مقسم»، وما أثبتناه من ق، ك، هـ.

كان رسول الله ﷺ يعتق العبيد إذا جاؤوا قَبْلَ مواليهم^(١).

وروى سعيد [بن منصور]^(٢) أيضا قال : قضى رسول الله ﷺ في العبد، وسيده قضيتين : قضى أن العبد إذا خرج من دار الحرب قبل سنده أنه حر، فإن خرج سنده بعده لم يُردّ عليه، وقضى أن السيد إذا خرج قبل العبد، ثم خرج العبد رُدَّ على سنده^(٣).

وعن الشعبي، عن رجل من ثقيف، قال : سألتنا رسول الله ﷺ أن يرد علينا أبا بكره، وكان عبدا لنا أتى رسول الله ﷺ، وهو محاصر ثقيفا، فأسلم، فأبى أن يرده علينا وقال : «هو طليق الله، ثم طليق رسوله»، فلم يرده علينا^(٤).
قال ابن المنذر : وهذا قول كل من يحفظ^(٥) عنه من أهل العلم.

فصل

ومنها : أن الإمام إذا حاصر حصنا، ولم يفتح عليه، ورأى مصلحة المسلمين في الرحيل عنه لم يلزمه مصابرة، وجاز له ترك مصابرة، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها.

(١) أحمد (١/ ٢٢٣، ٢٢٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٩٥٩) : «إسناده صحيح»، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٤٨) : «وفيه الحجاج ابن أروطا، وهو ثقة، ولكنه مدلس»، سنن : سعيد بن منصور في الجهاد (٢٨٠٧)، والبيهقي في الكبرى في الجزية (٩/ ٢٣٠).

(٢) ليست في ق، ك، وما أثبتناه من خ، هـ.

(٣) سنن سعيد بن منصور في الجهاد (٢٨٠٦).

(٤) أحمد (٤/ ١٦٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٤٨) : «رجالها ثقات»، وسنن سعيد بن منصور في الجهاد (٢٨٠٨)، وشرح معاني الآثار في وجوه الفیء وخمس الغنائم (٣/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٥) في هـ : «نحفظ»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

فصل

ومنها : أنه أحرم من الجِعْرَانَةِ^(١) بعمرة، وكان داخلا إلى مكة، وهذه هي السنة لمن دخلها من طريق الطائف، وما يليه، وأما ما يفعله كثير ممن لا علم عنده من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة، ثم يرجع إليها، فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا أحد من أصحابه البتة، ولا استحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس، زعموا [أنه]^(٢) اقتداء بالنبي ﷺ، وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلا إلى مكة، ولم يخرج منها إلى الجعرانة؛ ليحرم منها، فهذا لون، وستته لون، وبالله التوفيق .

فصل

ومنها : استجابة الله لرسوله ﷺ دعاءه لثقيف أن يهديهم، ويأتى بهم، وقد حاربوه، وقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه، وقتلوا رسول رسوله الذى أرسله إليهم يدعوهم إلى الله، ومع هذا كله، فدعا لهم، ولم يدعُ عليهم، وهذا من كمال رحمته ورأفته، ونصيحته صلوات الله وسلامه عليه .

فصل

ومنها : كمال محبة الصديق له، وقصده التقرب إليه، والتحبب بكل ما يمكنه، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبي ﷺ بقدوم وفد الطائف؛ ليكون هو الذى

(١) وتسمى اليوم بالتثعيم .

(٢) ليست فى خ، ق، ك، وما أثبتناه من هـ .

بشّره، وفّرّحه بذلك .

وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثّره بقربة من القرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثّر بها أخاه، وقول من قال من الفقهاء : لا يجوز الإيثار بالقرب، لا يصح، وقد أثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها جوار النبي ﷺ، وسألها عمر ذلك، فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل، وعلى هذا، فإذا سأل الرجل غيره أن يؤثّر بمقامه في الصف الأول لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل، ونظائره .

ومن تأمل سيرة الصحابة، وجدّهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه، وهل هذا إلا كرم^(١) وسخاء، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها وتفريحا لأخيه المسلم، وتعظيما لقدره، وإجابة له إلى ما سأل، وترغيبا له في الخير، وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحا على ثواب تلك القربة، فيكون المؤثر بها ممن تاجر، فبذل قربة، وأخذ أضعافها .

وعلى هذا، فلا يمتنع أن يؤثّر صاحب الماء بمائه أن يتوضأ به، ويتيمم هو إذا كان لا بد من تيمم أحدهما، فأثر أخاه، فحاز فضيلة الإيثار، وفضيلة الطهر بالتراب ولم يمنع من هذا كتاب، ولا سنة، ولا مكارم أخلاق .

وعلى هذا، فإذا اشتد العطش بجماعة وعانوا التلف، ومع بعضهم ماء، فأثر على نفسه، واستسلم للموت كان ذلك جائزا، ولم يقل : إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرما، بل هذا غاية الجود، والسخاء، كما قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩]، وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام وعُدّ ذلك في مناقبهم، وفضائلهم، وهل إهداء القرب المجمع عليها^(٢)، والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها، وهو عين الإيثار بالقرب، فأى فرق بين أن

(١) في هـ : «الإكرام»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

(٢) في هـ : «المجمع على جوازها»، وما أثبتناه من خ، ق، ك.

يؤثره بفعلها؛ ليحرز ثوابها، وبين أن يعمل، ثم يؤثره بثوابها، وبالله التوفيق .

فصل

ومنها : أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت، بعد القدرة على هدمها وإبطائها يوما واحدا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهى أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة، وهذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثانا، وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التى تقصد للتعظيم، والتبرك، والنذر، والتقبيل، لا يجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركا عندها، وبها، وبالله المستعان .

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق، وترزق، وتحىي وتميت، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القُذَّة بالقُذَّة^(١)، وأخذوا مأخذهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل، وخفاء العلم، فصار المعروف منكرا، والمنكر معروفا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، ونشأ فى ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقَلَّتْ^(٢) العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس، ولكن لاتزال طائفة من العصاة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث

(١) القُذَّة : ريشة السهام . والمعنى : أى كما تُقَدَّر كُلُّ واحدة منهما على قدر صاحبها وتُقطع ويضرب مثلا للشئين يستويان ولا يتفاوتان .

(٢) فى ق : « قل » ، وما أثبتناه من خ ، ك ، هـ .

الله - سبحانه - الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين .

فصل

ومنها : جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين، فيجوز للإمام، بل يجب عليه، أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التي تساق إليها كلها، ويصرفها على الجند، والمقاتلة، ومصالح الإسلام، كما أخذ النبي ﷺ أموال اللات وأعطاها لأبي سفيان يتألفه بها، وقضى منها دين عروة، والأسود، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا، وله أن يقطعها للمقاتلة، أو يبيعها ويستعين بأثمانها على مصالح المسلمين .

وكذلك الحكم في أوقافها، فإن وقفها، فالوقف عليها باطل، وهو مال ضائع، فيصرف في مصالح المسلمين، فإن الوقف لا يصح إلا في قربة، وطاعة لله ورسوله، فلا يصح الوقف على مشهد، ولا قبر يُسَرَّج عليه، ويُعَظَّم، وينذر له، ويحج إليه، ويعبد من دون الله، ويتخذ وثنا من دونه وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام، ومن اتبع سبيلهم .

فصل

ومنها : أن وادي وَجٍّ - وهو واد بالطائف - حرم يحرم صيده، وقطع شجره، وقد اختلف الفقهاء في ذلك، فالجمهور قالوا : ليس في البقاع حرم إلا مكة، والمدينة، وأبو حنيفة خالفهم في حرم المدينة، وقال الشافعي في أحد قوليهِ : وج حرم

يحرم صيده وشجره، واحتج لهذا القول بحديثين، أحدهما : هذا الذى تقدم،
والثانى : حديث عروة بن الزبير، عن أبيه الزبير أن النبى ﷺ قال : «إِنْ صَيْدَ وَجَّ،
وَعِصَاهُ حَرَمٌ مُحَرَّمٌ لِلَّهِ»، رواه الإمام أحمد، وأبو داود^(١). وهذا الحديث يعرف
بمحمد بن عبد الله بن إنسان، عن أبيه، عن عروة . قال البخارى فى تاريخه : لا يتابع
عليه .

قلت : وفى سماع عروة من أبيه نظر، وإن كان قد رآه، والله أعلم .

(١) أحمد (١ / ١٦٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٤١٦) : «إسناده صحيح»، وأبو داود فى المناسك
(٢٠٣٢) .